مجلة العلوم الشرعية، جامعة القصيم، المجلد (١)، العدد (١)، ص ص ٧١-١٠٢(يناير ٢٠٠٨م /محرم ١٤٢٩هـ .)

الثبات على الحق في ضوء القرآن الكريم

عبد العزيز بن عبدالله الخضيري
الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه
كلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم

ملخص البحث. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد:

فإن الهداية إلى هذا الدين الحق بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ﷺ، وما حصل به من نجاة الناس واستنقاذهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى لمن أعظم نعم الله تعالى على عباده، بل هي أعظمها على الإطلاق. ومن لوازم شكر هذه النعمة العظيمة الدوام عليها، والاستقامة على الصراط المستقيم، والثبات عليه إلى الممات. وفي القرآن الكريم إشراقات تنير الطريق وتوضح السبيل، فتجلي حقيقة الثبات، وتقرر أهميته، وتبين ما يحققه ويعين عليه. وهذا مما تعظم حاجة المسلم إليه في كل حين وآن، لا سيما في هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن، وتعددت فيه أسباب الشبهات ودواعي الشهوات.

وفي هذا البحث دراسة لموضوع الثبات على الحق في ضوء القرآن الكريم، وقد جعله الباحث في ثلاثة مباحث رئيسة:

أولها: في حقيقة الثبات وأنواعه، وفيه بيان لمعنى الثبات في اللغة، ولمعانيه الواردة في القرآن، ولما ورد عن السلف في فضله ومكانته. وفيه أيضاً حصر لأنواع الثبات الواردة في القرآن؛ كالثبات في المعتقد، والثبات على العمل الصالح بأنواعه من جهاد ودعوة ونفقة وغيرها. كما أن فيه أيضاً تقسيماً للثبات إلى ثبات دنيوي وثبات أخروي.

وثانيها: في عرض أساليب القرآن في الحث على الثبات، وتشمل: الأمر، والنهي، والمدح، والذم، والترغيب، والترهيب، والقصص، وضرب الأمثال.

أما ثالثها: ففي ذكر عوامل الثبات على الحق الواردة في القرآن، وتشمل: الإخلاص لله تعالى، والعمل الصالح، واستشعار النعمة، والدعاء، والمداومة على قراءة القرآن، والنظر في آيات الله الكونية، وتذكر الآخرة، والرفقة الصالحة، والاعتبار بقصص السابقين، والبعد عن الفتن.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد :

فإن الله تعالى قد أنعم على عباده بنعم كثيرة ، وآلاء جسيمة ، لا يمكن عدّ أجناسها فضلاً عن عد أفرادها ، وهو القائل ﷻ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾(١). ومن أعظم هذه النعم ، بل هي أعظمها على الإطلاق ؛ نعمة الهداية إلى هذا الدين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ﷺ ؛ إذ حصل بذلك نجاة الناس ، واستنقاذهم من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الجهالة إلى العلم والبصيرة. قال تعالى : ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾(٢).

ولا يعرف قدر هذه النعمة العظيمة إلا من عرف ما كان عليه العرب في الجاهلية ؛ فقد كانوا كما أخبر الله ﷻ عنهم في ضلال مبين ، ضلال في المعتقد ، وضلال في الشريعة ، وضلال في السلوك ، وضلال في الأخلاق. وفي الجملة ضلال في كل شيء. أما ضلال المعتقد ـ وهو مجال البحث ـ فقد كانوا يعبدون كل شيء تقريباً ، فيعبدون الشجر والحجر والشمس والقمر والنجوم والملائكة والجن ، وغير ذلك ، بل ربما صنع أحدهم صنماً من تمر فعبده ؛ ثم إذا جاع أكله. وقد جاء في الحديث أن الرجل كان في الجاهلية إذا خرج في سفر حمل معه أربعة أحجار ، ثلاثة لقِدْره ، والرابع يتخذه إلهاً من دون الله يعبده ويسأله قضاء حاجاته.(٣) فالحمد لله الذي هدانا لهذا الدين القويم ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ومن لوازم شكر هذه النعمة العظيمة الدوام عليها ، والاستقامة على الصراط المستقيم ، والثبات عليه إلى الممات. قال تعالى : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾(٤). وفي كتاب الله تعالى إشراقات وهدايات تنير الطريق ، وتوضح السبيل ؛ فتجلي حقيقة الثبات وتقرر أهميته ، وتبين العوامل المحققة له ، والمعينة عليه.

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٣٤.

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٤.

(٣) انظر : سنن الدارمي ، باب ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي ﷺ ١/ ١٤ ح ٣.

(٤) سورة الحجر ، الآية : ٩٩.

وفي هذا البحث دراسة لموضوع الثبات على الحق في ضوء القرآن الكريم. وهو موضوع تدعو الحاجة إليه في كل حين وآن ؛ إذ أن المسلم حريص على حفظ دينه ، والاستقامة عليه حتى يلقى الله تعالى. وتعظم الحاجة إليه في هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن ، وعظمت فيه الخطوب والمحن ، وتعددت فيه أسباب الشبهات ودواعي الشهوات ؛ حتى صار فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر ، يخشى إذا أصبح عليه ألا يمسي ، وإذا أمسى ألا يصبح.

وقد جعلت دراسة هذا الموضوع في مباحث ثلاثة ، كما يلي :

المبحث الأول : حقيقة الثبات وأنواعه. وهو على قسمين :

الأول : حقيقة الثبات. وفيه تعريف الثبات في اللغة ، ومعانيه في القرآن الكريم ، وما ورد فيه من الآثار الدالة على فضله ومكانته.

والثاني : أنواع الثبات الواردة في القرآن. وتشمل : الثبات في المعتقد ، والثبات على العمل الصالح بأنواعه ، كالقتال في سبيل الله ، والدعوة إلى الله ، والنفقة في وجوه الخير ، وتشمل أيضاً : الثبات في الدنيا ، الثبات في الآخرة.

أما المبحث الثاني فخصصته لعرض أساليب القرآن في الحث على الثبات

وتشمل : الأمر ، والنهي ، والمدح ، والذم ، والترغيب ، والترهيب ، والقصص ، وضرب الأمثال.

وفي المبحث الثالث ذكر لعوامل الثبات على الحق

وتشمل : الإخلاص لله تعالى ، والعمل الصالح ، واستشعار النعمة ، والدعاء ، والمداومة على قراءة القرآن ، والنظر في آيات الله الكونية ، وتذكر الآخرة ، والنظر في قصص السابقين ، والبعد عن الفتن ، والرفقة الصالحة.

وقد سلكت في بحث هذا الموضوع منهج التتبع والاستقراء لآيات القرآن الكريم التي تعرضت لقضية الثبات ، مستنبطاً منها الأحكام والدلالات والهدايات. كما اعتمدت على ما ثبت من سيرة النبي ﷺ والسلف الصالح مما له تعلق بهذا الموضوع ، مطلعاً – قدر الإمكان – على ما كتبه العلماء المحققون فيه ، معتمداً في ذلك على المصادر الأصيلة ما استطعت.

كما قمت بعزو الآيات القرآنية بذكر السورة ورقم الآية ، وخرجت الأحاديث النبوية ، مقتصراً على ذكر الصحيحين أو أحدهما إن كان مخرجاً فيهما. ونسبت الأقوال إلى قائليها ، وقد أدع ذلك عند الشهرة أو خفاء القائل. أما الأعلام المذكورون فلم أترجم لأحد منهم خشية الإطالة.

هذا ، والله أسأل التوفيق والإعانة ، والإخلاص في القول والعمل ، والعصمة من الزلل ، إنه جواد كريم. والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: حقيقة الثبات وأنواعه

أولاً: حقيقة الثبات

الثبات في اللغة: مصدر ثَبَتَ يثبت ثَباتاً وثُبوتاً، فهو ثابت وثَبيت وثَبْت. ويتعدى بالهمزة والتضعيف، فيقال: أثْبَته وثبَّته. والثبات ضد الزوال. ومعنى ثبت: دام واستقر وأقام. يقال: ثبتت الإبل، إذا بركت على الأرض ولم تتحرك. وأثْبَتَ فلاناً، إذا داوم ملازمته ولم يفارقه. ورجل ثَبْت، أي: ساكن البال متثبت في أموره. ومنه قيل للحجة في الحديث: ثَبْت؛ إذا كان عدلاً ضابطاً متقناً. وثابت الجنان ثَبْت في الحرب: إذا قام للعدو ولم يهرب. والإثبات والتثبيت تارة يقال بالفعل، فيقال لما خرج من العدم إلى الوجود، نحو: أثبت الله كذا. وتارة لما يثبت بالحكم، فيقال: أثبت الحاكم على فلان كذا وثبَّته. وتارة لما يكون بالقول، سواء أكان ذلك صدقاً أم كذباً؛ فيقال: أثبت التوحيد وصِدْق النبوة، وفلان أثبت مع الله إلهاً آخر.(٥)

والثبات في القرآن الكريم يطلق على معان ذكرها العلماء، منها:

أ) ما دلت عليه اللغة من الدوام والاستقرار والإقامة وعدم الزوال، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ ﴾.(٦) أي: أقيموا مكانكم مواجهين للعدو، ولا تفروا مدبرين.

ب) التقوية والنصرة والإعانة، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ ﴾(٧)، وقوله ﷻ: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(٨)، وقوله سبحانه مخبراً عن المؤمنين: ﴿ وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا ﴾(٩). ومثله قوله تعالى عن المطر يوم بدر: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾(١٠)؛ فإنهم كانوا في رمل تغيب فيه الأقدام، فشدده ﷻ وقواه بالمطر.

جـ) تسكين القلب، كقوله ﷻ: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾(١١)؛ فإن تثبيت الفؤاد هنا ليس للشك، ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر على القلب، كان القلب أسكن وأثبت أبداً، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾(١٢).

---

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن: ٧٨، أساس البلاغة: ٤٢، لسان العرب ٢/ ٧٩، القاموس المحيط: ١٩٠، مختار الصحاح: ٨١، المصباح المنير: ٨٠.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٨) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.

(١٠) سورة الأنفال، الآية: ١١.

(١١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(١٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

د) الحبس والمنع ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾(١٣)، أي : يثبطوك ويحيروك ويحبسوك.

هـ) التصديق واليقين والإقرار ، كقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾(١٤) ؛ أي : تصديقاً ويقيناً بثواب الإنفاق. قال الزجاج : ينفقونها مقرين بأنها مما يثيب الله عليها.

و) ثبوت العمل الصالح، وقبوله، وحصول الثمرة المرجوة منه، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾(١٥) ؛ أي : أثبت لأعمالهم واجتناء ثمرة فعلهم ، وأن يكونوا بخلاف من قال الله فيهم : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾(١٦) (١٧).

والحق أن هذه المعاني المذكورة، وإن تعددت بحسب الظاهر ؛ إلا أنها عند التأمل ترجع إلى معنى الثبات في اللغة، وهو الدوام والاستقرار وعدم الزوال. فالتقوية والنصرة إنما هي للدوام وعدم النكوص، وكذا الحال في سكون القلب، فإنه إذا سكن ثبت على ما هو عليه من الحق، واستقر عليه. وكذا التصديق واليقين ؛ فإن من أعظم ثمراته الملازمة والمداومة. أما الحبس والمنع ففيهما أيضاً معنى الدوام على الشيء وعدم مفارقته. وقل مثل ذلك أيضاً في تفسير ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ ؛ أي : أدوم لأعمالهم الصالحة، وأدعى إلى استمرارهم عليها.

وعلى هذا فالثبات على الحق هو الدوام عليه، وملازمته، والاستقامة على شرع الله، بفعل الأوامر وترك النواهي. وهو أمر عظيم القدر، شريف المنزلة. ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. فقيل له : يا نبي الله آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟ فقال : نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ﷻ يقلبها كيف يشاء" (١٨). وعن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ "كان يكثر في دعائه أن يقول : اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. فقلت له : يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت

---

(١٣) سورة الأنفال، الآية : ٣٠.

(١٤) سورة البقرة، الآية : ٢٦٥.

(١٥) سورة النساء، الآية : ٦٦.

(١٦) سورة الفرقان، الآية : ٢٣.

(١٧) انظر : معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٤، المفردات في غريب القرآن : ٧٨، لسان العرب ٢/ ٧٩، إصلاح الوجوه والنظائر : ٩٠.

(١٨) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٤٤٨ ح ٢١٤٠، والإمام أحمد في مسنده ٣/ ١١٢ ح ١٢١٢٨. وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح ١/ ٢٢ ح ١٠٢.

قلبي على دينك. قال: يا أم سلمة ما من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله ﷻ ما شاء أقام وما شاء أزاغ".(١٩) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: " ما رفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السماء إلا قال يا مصرف القلوب ثبت قلبي على طاعتك ".(٢٠)

فإذا كان هذا هو حال النبي ﷺ وهو سيد ولد آدم، المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف يكون حال من عداه من سائر الناس، ممن لا يدري كيف تكون عاقبته ؟ لا سيما وهو يسمع قول النبي ﷺ: " والذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ".(٢١)

ولأجل هذا اشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق. وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يختم لنا ؟ وقلوب المقربين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سبق لنا ؟ وبكى بعض الصحابة عند موته، فسئل عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين، فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار ". ولا أدري في أي القبضتين كنت.(٢٢)

قال بعض السلف: ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق. وقال سفيان لبعض الصالحين: هل أبكاك قط علم الله فيك ؟ فقال له ذلك الرجل: تركتني لا أفرح أبداً. وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق والخواتيم، فكان يبكي ويقول: أخاف أن أكون في أم الكتاب شقياً. ويبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت. وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضاً على لحيته، ويقول: يا رب، قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أي الدارين منزل مالك ؟(٢٣)

---

(١٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٣١٥ ح ٢٦٧٢١. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٤٨٠١.

(٢٠) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٦/ ٨٣ ح ١٠١٣٦، والإمام أحمد في مسنده ٤١٨/٢ ح ٩٤١٠. وقال عنه شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند: صحيح لغيره.

(٢١) أخرجه البخاري في صحيحه٣/ ١١٧٤ح ٣٠٣٦، ومسلم في صحيحه٤/ ٢٠٣٦ح ٢٦٤٣.

(٢٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٦٨ ح ٢٠٦٨٧، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند. وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ١٧٢ ح ٣٦٥.

(٢٣) انظر: جامع العلوم والحكم ١/ ١١٢.

ثانياً: أنواع الثبات

المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن الثبات فيها قد ورد على أنواع متعددة ونواح مختلفة، وعند التأمل يمكن ردها إلى قسمين رئيسين: ثبات في الدنيا، وثبات في الآخرة. وفيما يلي بيان لذلك:

١- الثبات في الدنيا

الأصل في هذا النوع من الثبات قوله ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾(٢٤)، على تفسير من قال إن المراد بالقول الثابت عموم العمل الصالح، وهو قول قتادة(٢٥)، والمراد بالحياة الدنيا ما قبل الموت، وهو قول عامة المفسرين.(٢٦) وذلك أن الخلاف قد وقع بين أهل العلم في ثلاثة مواضع من هذه الآية.

أولها: القول الثابت، فقد قيل: إنه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وقيل: هو العمل الصالح كله، فتدخل فيه الشهادتان وغيرهما من أفراد العمل الصالح.

والثاني: الحياة الدنيا، فقد قيل: هي ما قبل الموت، وقيل: هي حياة البرزخ، وما يكون من سؤال الميت في قبره قبل قيام الساعة.

والثالث: الآخرة، فقد قيل: هي حياة البرزخ وفتنة القبر، وقيل: هي ما بعد البعث والنشور وقيام الساعة. وقيل: تشمل فتنة القبر، وما يكون بعد قيام الساعة.(٢٧)

والأولى حمل الآية على العموم كما هو ظاهرها؛ فإن من المقرر أن اللفظ القرآني إذا دار معناه بين العموم والخصوص، ولا دليل على الخصوص؛ فإنه يحمل على العموم. فإن قيل: أليس قد ورد في السنة ما يدل على التخصيص كتفسير القول الثابت بالشهادتين، وتفسير الآخرة بالقبر؟ فالجواب أن يقال: إن ذلك من باب ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافق حكم العام، وهذا لا يقتضي تخصيصاً، بل هو كقول النبي ﷺ حين سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى: " هو مسجدكم هذا "(٢٨) لمسجد المدينة. فإنه لم يمنع أن يكون المراد أيضاً مسجد قباء.(٢٩)

---

(٢٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٢٥) انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢١٨، الدر المنثور ٥/ ٣٣.

(٢٦) انظر: تفسير البغوي ٤/ ٣٤٩.

(٢٧) انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢١٣ وما بعدها، تفسير البغوي ٤/ ٣٤٩، تفسير القرطبي ٩/ ٢٣٨، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣١ وما بعدها، الدر المنثور ٥/ ٢٦ وما بعدها، روح المعاني ١٣/٢١٧.

(٢٨) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ١٠١٥ ح ١٣٩٨.

(٢٩) انظر: صحيح البخاري ٣/ ١٤٢١.

ثم إن الأحاديث الواردة في تفسير الآية ليست صريحة في تحديد معنى بعينه، مع ورودها أيضاً على وجوه متعددة وألفاظ مختلفة، تفيد عند التأمل أكثر من معنى.(٣٠)

وعلى هذا فالمراد بالقول الثابت في الآية العمل الصالح كله، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً الشهادتان، والمراد بالحياة الدنيا ما قبل الموت، ويجوز أن يراد بها ما سوى الآخرة وقبل قيام الساعة، فيدخل في ذلك فتنة القبر. أما الآخرة فيراد بها ما بعد قيام الساعة ووقوع البعث والنشور، ولا مانع أيضاً من شمولها لفتنة القبر؛ على اعتبار أن من مات فقد قامت قيامته.

والحاصل أن المراد من الآية ـ والله أعلم ـ تقرير تثبيت الله ﷻ لعباده المتصفين بالإيمان والعمل الصالح في جميع مراحل حياتهم، في الدنيا، وعند الموت، وحال السؤال في القبر، وعند قيام الساعة ووقوع البعث والنشور والحساب والجزاء.

والثبات في الدنيا يشمل أموراً عدة، منها:

أ) الثبات في المعتقد: والمراد به التوحيد والمعتقد الصحيح المفضي إلى رضوان الله تعالى، والمنجي من عقابه. وهذا مما يمنّ الله تعالى به على عباده المؤمنين في دنياهم وفي أخراهم. فيثبتهم في دنياهم على شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعلى ما تستلزمه هذه الشهادة، فلا يزيغون عنها وإن عظمت الفتن وتوالت المحن. ويثبتهم في الآخرة بمثل ذلك؛ فلا تطيش عقولهم، ولا تزيغ أفئدتهم في أهوال وعظائم ما بعد الموت، وعند قيام الساعة. وقول النبي ﷺ: "يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك"(٣١) من هذا المعنى؛ إذ إن المراد بالدين: المعتقد الصحيح ولازمه من العمل الصالح.

ومن أدلة هذا النوع قوله ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾(٣٢) قال ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ بعد ما ساق الأقوال في تفسير الآية: (والصواب من القول في ذلك ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك وهو أن معناه يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ، وفي الآخرة بمثل الذي ثبتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ.

---

(٣٠) للاطلاع على ما ورد في تفسير الآية من الأحاديث انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢١٣ وما بعدها، الدر المنثور ٥/ ٢٦ ـ ٤٠.

(٣١) سبق تخريجه.

(٣٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

وأما قوله: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإنه يعني أن الله لا يوفق المنافق والكافر في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المسألة في القبر لما هدى له من الإيمان المؤمن بالله ورسوله ﷺ).(٣٣)

ومراده بالخبر الثابت عن رسول الله ﷺ، والذي تفسر الآية بمقتضاه، هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: " تلا رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ قال: ذاك إذا قيل في القبر من ربك وما دينك فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ جاء بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت. فيقال له: صدقت، على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث ".(٣٤) فقوله ﷺ: على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث يدل على أن التثبيت المذكور في الآية شامل للدنيا والآخرة.

وبنحو ما قال الطبري قال غيره، فقال ابن كثير: (يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: يحقق الله أعمالهم وإيمانهم بالقول الثابت يقول بالقول الحق، وهو فيما قيل: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).(٣٥) وقال الفراء: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.. يقال: بلا إله إلا الله فهذا في الدنيا. وإذا سئل عنها في القبر بعد موته قالها إذا كان من أهل السعادة، وإذا كان من أهل الشقاوة لم يقلها. فذلك قوله تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ عنها؛ أي عن قول: لا إله إلا الله).(٣٦)

ب) الثبات على العمل الصالح: العمل الصالح لفظ عام يشمل كل ما يحبه الله ﷿ من الأقوال والأفعال، سواءً منها ما تعلق بالجوارح أو ما تعلق بالقلوب. وكل ذلك يثبت الله تعالى عباده المؤمنين عليه، فلا يزالوا قائمين به مداومين عليه، حتى يلقوه ﷿. والعمل الصالح مرادف للطاعة؛ لأن الطاعة معناها الانقياد لله تعالى بفعل أوامره وترك نواهيه. ومن هذا المعنى قوله ﷺ: " يا مصرف القلوب ثبت قلبي على طاعتك ".(٣٧) وهذا النوع من الثبات من أعظم الأنواع؛ لأن المؤمن لا ينفك محتاجاً إلى ربه ﷿ في تثبيته على ما يحبه ويرضاه؛ إذ العوارض كثيرة، والصوارف عن الخير متعددة، فهناك العدو الأعظم؛ إبليس، وهناك الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، وشياطين

---

(٣٣) تفسير الطبري ١٣/ ٢١٨.

(٣٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٣/ ٢١٥.

(٣٥) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٤.

(٣٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٧.

(٣٧) سبق تخريجه.

الإنس والجن، وزخرف الدنيا وغرورها. والسالم من سلمه الله، والموفق من وفقه الله، والمهتدي من هداه الله. وفي التنزيل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.(٣٨)

والعمل الصالح أفراد كثيرة، وقد ورد الثبات في عدد منها، فمن ذلك:

● **القتال في سبيل الله:** القتال في سبيل الله من أفضل الأعمال الصالحة، بل هو ذروة سنام الإسلام؛ فبه يدفع العدو الصائل، وبه تحمى العقيدة والشريعة والسلوك والأخلاق، وبه تحفظ ديار المسلمين، وبه ينشر دين الله؛ فتعم دعوته ونعمته العالمين، ويُستنقذ الناس؛ فيحررون من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ويخرجون من ظلم الأديان إلى عدل الإسلام.

والمتتبع لآيات الثبات في القرآن يجد أن كثيراً منها قد ورد في موضوع القتال في سبيل الله، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾(٣٩)، وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(٤٠)، وقوله سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٤١)، وقوله ﷻ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾(٤٢).

والحكمة من تعدد آيات الثبات في موضوع القتال ـ والله أعلم ـ أن حال القتال من أعظم الأحوال التي يحتاج فيها المؤمن إلى الثبات؛ بالنظر إلى هول الموقف وصعوبته، إذ النفوس مجبولة على حب الحياة وكراهة الموت، والقتال مظنة الموت وفقد الحياة، كما أنه مظنة الجراحة وفقد المال، وموطن النصب والتعب وبذل الجهد ومفارقة الأهل والوطن، وكل ذلك مما تكرهه النفس. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾(٤٣). وقد أُكِّد إيجاب الثبات حال القتال بجعل الفرار من المعركة من كبائر الذنوب وموبقاتها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٤٤). وقال ﷺ: " اجتنبوا السبع الموبقات ـ وعد منها ـ

---

(٣٨) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٣٩) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

(٤٠) سورة محمد، الآية: ٧.

(٤١) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٤٢) سورة الأنفال، الآية: ١١.

(٤٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٤٤) سورة الأنفال، الآية: ١٥.

التولي يوم الزحف".(٤٥) وفي المقابل أثنى سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين الثابتين، وبين ما أعده لهم من الثواب العظيم، فقال عز من قائل: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(٤٦).

● **الدعوة إلى الله:** الدعوة إلى الله تعالى من أفضل الأعمال وأجل القربات، وكيف لا تكون كذلك وهي وظيفة الأنبياء والرسل، ومن سلك طريقهم من الدعاة والمصلحين. قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾(٤٧). والناس لا يزالون محتاجين إلى من يقوم بهذه الوظيفة العظيمة في كل عصر ومصر، لا سيما في هذا الزمان الذي خفيت فيه السنة وفشت البدعة، وكثرت الشبهات، وعمت الشهوات، وعاد الإسلام الحق غريباً، وصار كثير من المسلمين لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من الدين إلا رسمه، مما أوجب على كل قادر أن يدعو إلى الله تعالى، استجابة لقوله عز وجل: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾(٤٨)، وقوله ﷺ: " بلغوا عني ولو آية "(٤٩)، واحتساباً للأجر المذكور في قوله ﷺ: " لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم "(٥٠)، وقوله ﷺ: " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً " (٥١).

ومع أهمية الدعوة وحاجة الناس إليها، إلا أن طريقها مليء بالصعوبات والعقبات، والمتصدر لها لا يسلم من أذى الناس في نفسه أو عرضه أو ماله، بهدف صده عن دعوته، وعدم تمكينه من بلوغ مراده. وقد يكون المدعوون من أصحاب النفوذ والسلطان الذين يرون في الدعوة إلى الله تهديداً لسلطانهم، وخطراً يحدق بمكتسباتهم المادية والمعنوية. ولذلك يلجؤون إلى كل وسيلة تمنع عنهم هذا الخطر، فيبدؤون بلمز الداعي، ووصفه بمكروه الصفات، والنيل من دعوته، فإن لم ينجح ذلك لجؤوا إلى إغرائه ومساومته ووعده بشيء مما في أيديهم من زخرف الحياة الدنيا، فإن لم يفلحوا حاولوا أن يقنعوه بقبول دعوته بشرط التنازل عن بعض أسسها ودعائمها التي لا توافق

---

(٤٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ٢٥١٥ ح ٦٤٦٥، ومسلم في صحيحه ١/ ٩٢ ح ٨٩.

(٤٦) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٤٧) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٤٨) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٤٩) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٢٧٥ ح ٣٢٧٤.

(٥٠) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٠٧٧ ح ٢٧٨٣، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٨٧٢ ح ٢٤٠٦.

(٥١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٦٠ ح ٢٦٧٤.

ما هم عليه ، فإن فشلوا في ذلك كله كانت المواجهة والصدام. ولأجل هذا فلا شك أن الداعي إلى الله تعالى في أمس الحاجة إلى نصر الله ﷻ وتسديده وتثبيته في جميع مراحل دعوته.

والمتتبع لسيرة الرسول ﷺ مع قومه يجد ذلك واضحاً جلياً ، ويجد تثبيت الله ﷻ لرسوله ﷺ. فقد ذُكر أن رهطاً من قريش ، منهم : الحارث ابن قيس السهمي ، والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وأمية بن خلف ، قالوا : يا محمد ، هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كله ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه وأخذنا حظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه. فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره. قالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك. فقال : حتى أنظر ما يأتي من عند ربي. فأنزل الله ﷻ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٥٢) إلى آخر السورة. فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ، وفيه الملأ من قريش ، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة ؛ فأيسوا منه عند ذلك ، وآذوه وأصحابه.(٥٣)

وعند البغوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾(٥٤) أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم وفد ثقيف على النبي ﷺ فقالوا : نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال. قال : وما هن ؟ قالوا : ألا ننحني ـ أي في الصلاة ـ ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها. فقال النبي ﷺ : " لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود ، وأما أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذاك لكم ، وأما الطاغية ـ يعني اللات والعزى ـ فإني غير ممتعكم بها ". فقالوا : يا رسول الله إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا ، فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا ، فقل : الله أمرني بذلك. فسكت رسول الله ﷺ ، فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك ، فأنزل الله ﷻ هذه الآية.(٥٥)

---

(٥٢) سورة الكافرون ، الآية : ١.

(٥٣) انظر : تفسير الطبري ٣٠/ ٣٣١ ، أسباب النزول للواحدي : ٢٦١ ، تفسير البغوي ٨/ ٥٦٣ ، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٦٠.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٧٣٣ : وقد أخرج ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس قال : قالت قريش للنبي ﷺ : كف عن آلهتنا فلا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فنزلت. وفي إسناده أبو خلف عبد الله بن عيسى ، وهو ضعيف.

(٥٤) سورة الإسراء ، الآيتان : ٧٣ ، ٧٤.

(٥٥) تفسير البغوي ٥/ ١١١. وانظر : أسباب النزول للواحدي : ١٦٧.

وهذه الآثار وإن كان في سندها مقال، إلا أن ظاهر الآيات يدل على أن المشركين حرصوا على مساومة رسول الله ﷺ في بعض مبادئ الدعوة وأسسها، إلا أن الله تعالى أيده وثبته. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآيتين الأخيرتين: (يخبر تعالى عن تأييده رسوله ﷺ وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها).(٥٦)

وما وقع للنبي ﷺ من الكيد له ولدعوته، ومحاولة صده عن بعض مبادئها؛ وما كان من تثبيت الله له ونصره ﷺ، يقع لمن سلك طريقه من الأئمة والدعاة والمصلحين في كل زمان ومكان. ومن تدبر سير أمثال الإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية والعز بن عبد السلام؛ علم ذلك بيقين.

● **النفقة في وجوه الخير:** قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٥٧). دلت هذه الآية الكريمة على أن المؤمنين بما رزقهم الله تعالى من اليقين والتصديق المثبت لقلوبهم يقبلون على إنفاق أموالهم، طيبة بها نفوسهم؛ طلباً لما عند الله من الأجر والمثوبة. قال قتادة في تفسير ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: احتساباً من أنفسهم. وقال الشعبي: تصديقاً من أنفسهم، أي يخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب وتصديق بوعد الله، يعلمون أن ما أخرجوا خير لهم مما تركوا وقيل: على يقين بإخلاف الله عليهم. وقيل تثبيتاً من أنفسهم، أي: يقرون بأن الله تعالى يثبت عليها، أي: وتثبيتاً من أنفسهم لثوابها بخلاف المنافق الذي لا يحتسب الثواب. وقال السدي وابن زيد: معنى ﴿وَتَثْبِيتًا﴾: تيقناً؛ أي: أن أنفسهم لها بصائر، فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تعالى تثبيتاً. وهذا القول الأخير أقرب والله أعلم؛ فإنه يقال: ثبَّتُّ فلاناً في هذا الأمر؛ أي صححتُ عزمه، وقويتُ فيه رأيه، أثبِّتُه تثبيتاً، أي: أنفسهم موقنة بوعد الله على تثبيتهم في ذلك.(٥٨)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تعليل ذكر التثبيت في الآية: (.. لأن التثبت هو القوة والمكنة، وضده الزلزلة والرجفة؛ فإن الصدقة من جنس القتال، فالجبان يرجف، والشجاع يثبت. ولهذا قال النبي ﷺ: " وأما الخيلاء التي يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند الحرب واختياله بنفسه عند الصدقة "(٥٩)؛ لأنه مقام ثبات

---

(٥٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣.

(٥٧) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.

(٥٨) انظر: تفسير البغوي ١/ ٣٢٨، تفسير القرطبي ٣/ ٢٠٤.

(٥٩) أخرجه أبو داود في سننه ٢/٥٧ ح ٢٦٥٩، والإمام أحمد في مسنده ٥/٤٤٦ ح ٢٣٨٠٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٥٦ ح ١٨٢٥٩. وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٢٢٢١.

وقوة، فالخيلاء تناسبه. وإنما الذي لا يحبه الله المختال الفخور البخيل الآمر بالبخل، فأما المختال مع العطاء أو القتال فيحبه. وقوله ﴿ مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾: أي ليس المقوي له من خارج، كالذي يثْبُتُ وقت الحرب لإمساك أصحابه له.. بل تثبته من جهة نفسه).(٦٠)

فالله عَجَّلَ بتوفيقه وتسديده يعصم المؤمن من الشح والبخل، ويرزقه من الثبات ما يحمله على إنفاق ماله طيبة به نفسه، فيتغلب بذلك على غريزة حب المال وكراهة بذلة؛ إذ النفوس مجبولة على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾(٦١)، وقال عَجَّلَ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾(٦٢) بل هو عند بعض الناس في منزلة النفس، ولهذا قرن الجهاد بالأموال بالجهاد بالأنفس في غير ما آية من كتاب الله تعالى، مع تقديم الجهاد بالأموال في الأعم الأغلب.

٢- الثبات في الآخرة

أ) الثبات في القبر: القبر أول منازل الآخرة، فمن مات فقد انقطع من الدنيا، وقامت قيامته، وكان قبره له روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار. وفي القبر يفتن الإنسان ويختبر؛ فيسأل عن ربه عَجَّلَ، وعن دينه، وعن نبيه ﷺ. فإن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح ثبته الله تعالى وسدده، ورزقه من اليقين والطمأنينة والقوة ما ينجيه من هول الموقف، ويعينه على إجابة الملكين على الصواب، وإن كان غير ذلك وكل إلى نفسه، وإلى سوء عمله فخاب وخسر.

والإيمان بهذا من أصول الاعتقاد الصحيح بإجماع أهل السنة والجماعة. ويدل له قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾(٦٣). فإن تثبيت المؤمن في هذه الآية شامل لتثبيته في قبره عند سؤال الملكين له، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " إذا أقعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ ".(٦٤)

وعنه رضي الله عنه قال: " خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت في الأرض فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً. ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من

---

(٦٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٤/ ٩٥.

(٦١) سورة الفجر، الآية: ٢٠.

(٦٢) سورة العاديات، الآية: ٨.

(٦٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٦٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٤٦١ ح ١٣٠٣، ومسلم في صحيحه ٤/ ٢٢٠١ ح ٢٨٧١.

الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة ـ ثم ذكر ﷺ قبض روحه وصعود الملائكة بها إلى السماء..إلى أن قال ـ فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك ؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ـ ثم ذكر ﷺ حال الكافر في قبض روحه والصعود بها إلى السماء وإغلاق أبوابها دونها وطرحها إلى الأرض، ثم قال ـ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه.. " الحديث (٦٥)

وكان من هديه ﷺ إذا فرغ من دفن الميت أن يقف على قبره، ويقول: " استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل ".(٦٦)

ب) الثبات يوم القيامة: يوم القيامة يوم عظيم تشيب من أهواله الولدان، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس فيه كالسكارى خوفاً وفزعاً، يفر المرء فيه من أقرب الناس إليه، فلا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، بل لسان حال كل فرد منهم: نفسي نفسي. وكيف لا يكونون كذلك وهم يرون الأهوال العظيمة والخطوب الجسيمة التي لا عهد لهم بها، ولا قبل لهم بها ؟ كيف لا يكونون كذلك وهم يرون الملائكة قد صفت، والله ﷻ قد نزل للفصل بين الخلائق، فالموازين قد وضعت، والصحف قد نشرت، والصراط قد مد على جهنم، فهم ما بين ناج منها ومكردس فيها، وهي تقول: هل من مزيد ؟

---

(٦٥) أخرجه أبو داود في سننه ٢٣٩/٤ ح ٤٧٥٣، والإمام أحمد في مسنده ٤/ ٢٨٧ ح ١٨٥٥٧. وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح ٣٦٨/١ ح ١٦٣٠.

(٦٦) أخرجه أبو داود في سننه ٢١٥/٣ ح ٣٢٢١، والبيهقي في السنن الكبرى ٥٦/٤ ح ٦٨٥٦. وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح ٢٩/١ ح ١٣٣.

إنه ليوم عظيم الناجي فيه من أنجاه الله تعالى، والهالك من وكله إلى نفسه وعمله السيء. وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾(٦٧) فقوله سبحانه هو الحق، ووعده هو الصدق. فإنه عَزَّوَجَلَّ بمنه وكرمه يثبت عباده المؤمنين في ذلك اليوم العظيم، فلا يفزعون كما يفزع الناس، ولا يخافون كما يخاف الناس، ولا تزل أقدامهم على الصراط، بل هو الثبات والأمن حتى يردوا جنة ربهم التي وعدهم إياها، وأعدها لهم جزاء بما كانوا يعملون. قال تعالى عن عباده المؤمنين: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(٦٨). وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾(٦٩) وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾(٧٠).

قال الحافظ ابن كثير: (قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد السلام بن مطهر حدثنا جعفر بن سليمان قال سمعت ثابتاً قرأ سورة حم السجدة حتى بلغ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فوقف، فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له لا تخف ولا تحزن. ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾. قال: فيؤمن الله تعالى خوفه ويقر عينه فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين لما هداه الله تبارك وتعالى ولما كان يعمل في الدنيا. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث.. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ۖ ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم أي قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ونؤمنكم يوم البعث والنشور ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونوصلكم إلى جنات النعيم..) (٧١)

---

(٦٧) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٦٨) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.

(٦٩) سورة النمل، الآية: ٨٩.

(٧٠) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٧١) تفسير ابن كثير ٤/ ٩٩.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قيل له : يا رسول الله ، يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ! ما أطول هذا اليوم ! فقال النبي ﷺ : " والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا ".(٧٢)

هذه بعض أنواع الثبات الواردة في القرآن الكريم: والمتأمل يرى أن الثبات يكون في ثلاثة محال : النفس عموماً ، والفؤاد ، والأقدام. فمن الأول : قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾(٧٣) ، وقوله عز وجل : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾(٧٤). ومن الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾(٧٥) ، وقوله عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾(٧٦). ومن الثالث : قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾(٧٧) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾(٧٨).

ولا تعارض في ذلك ولا منافاة ؛ إذ الأصل في الثبات أن يرد على الأفئدة ، وهي القلوب ؛ إذ هي التي عليها المدار ، كما قال النبي ﷺ : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ".(٧٩) فبثباتها يكون ثبات النفس كلها. أما ورود الثبات على الأقدام فلم يقع إلا في سياق الحديث عن القتال ، والمراد به أيضاً ثبات الأفئدة ؛ إذ لا يتصور ثبات الأقدام بدون ثبات الأفئدة ، وإنما عبر بذلك في هذا السياق ؛ لأنه هو المظهر الواضح لثبات القلب وطمأنينته ، فإن قلوب المقاتلين إذا ثبتت ؛ ثبتت أقدامهم فلم يهربوا ولم ينهزموا.

---

(٧٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٦/ ٣٢٩ ح ٧٣٣٤ ، والإمام أحمد في مسنده ٣/ ٧٥ ح ١١٧٣٥ ، وأبو يعلى في مسنده ٢/ ٥٢٧ ح ١٣٩٠ . وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري ٤٨٨/١١.

(٧٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٥.

(٧٤) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٧.

(٧٥) سورة هود ، الآية : ١٢٠.

(٧٦) سورة الفرقان ، الآية : ٣٢.

(٧٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٠.

(٧٨) سورة الأنفال ، الآية : ١١.

(٧٩) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٢٨ ح ٥٢ ، ومسلم في صحيحه ٣/ ١٢١٩ ح ١٥٩٩.

المبحث الثاني: أساليب القرآن في الحث على الثبات

تعددت أساليب القرآن الكريم في الحث على الثبات، فشملت الأمر والنهي والمدح والذم والترغيب والترهيب والقصص وضرب الأمثال. وفيما يلي بيان لتلك الأساليب:

١- الأمر

والمراد به الأمر المباشر للمؤمنين بالثبات على مراده عز وجل، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(٨٠)، ففي هذه الآية وما بعدها ذكر لمقومات النصر على الأعداء، واردة بصيغة الأمر المفيد للوجوب، وفي مقدمتها الثبات عند المواجهة، وعدم التولي والفرار.

٢- النهي

كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾(٨١)، فقد نهى عز وجل عن الفرار والتولي عند ملاقاة العدو، والنهي عن ذلك أمر بضده، وهو الثبات.

٣- المدح

أي مدح الثبات، وتعظيم أمره، وإعلاء شأنه، وبيان عظم منزلته. فمن ذلك إضافته إلى الله تعالى، موعوداً منه عز وجل على العمل الصالح، ولا شك أن المضاف يعظم بعظم المضاف إليه، والمعطى يعظم بعظم المعطي. وذلك كقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ ﴾(٨٢)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾(٨٣)، وقوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾(٨٤).

ومن ذلك أن يكون من المقاصد العظيمة التي أنزل القرآن الكريم لأجلها، كقوله سبحانه: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾(٨٥)، ومنه أن يضاف إلى الملائكة كوظيفة من وظائفهم في دعم المؤمنين وتأييدهم ونصرهم، كقوله عز وجل: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ

---

(٨٠) سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

(٨١) سورة الأنفال، الآية: ١٥.

(٨٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٨٣) سورة محمد، الآية: ٧.

(٨٤) سورة الأنفال، الآية: ١١.

(٨٥) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

ءَامَنُواْ ﴾(٨٦). ومنه أن يكون مما يتطلع إليه المؤمنون الصادقون، فيسألون ربهم إياه؛ لأنهم لا يسألونه إلا ما عظم قدره عندهم، كقوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٨٧).

٤- الذم

والمراد ذم ما يقابل الثبات، وهو النكوص والفرار والتولي. ومن ذلك أن يجعل من أوصاف المنافقين المعروفين بالجبن والتخاذل كقوله ﷻ: (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون)(٨٨).

٥- الترغيب

أي الترغيب في الثبات، والحث عليه، ووعد أهله بخيري الدنيا والآخرة. ومن الآيات الجامعة لذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٤٧) فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٨٩).

لقد تضمنت هذه الآيات وسائل عدة من وسائل الترغيب في الثبات، منها:

أ) إثبات محبة الله ﷻ لأهل الثبات بقوله سبحانه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ إذ المراد بهم من تقدمت صفاتهم ودعواتهم له تعالى بالمغفرة والثبات والنصر، فاستحقوا بذلك محبته ﷻ.

ب) وصفهم بالإحسان، وهو أعلى مراتب الدين.

جـ) التفضل عليهم بثواب الدنيا، وهو شامل لكل ما يريدونه منها من النصر والغلبة والتمكين وظهور الأمر وإذلال العدو.

د) إكرامهم بحسن ثواب الآخرة، وهو شامل لنجاتهم من مكاره الآخرة وأهوالها، وتحصيلهم لكل ما تشتهيه نفوسهم وتتمناه من نعيم الجنة وملذاتها.

---

(٨٦) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٨٧) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.

(٨٨) سورة الحشر، الآيتان: ١١، ١٢.

(٨٩) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦ ـ ١٤٨.

٦- الترهيب

أي الترهيب من التولي وعدم الاستقامة على الأمر والنهي، والتحول مما يحبه الله ويرضاه إلى ما يكرهه ويأباه. والوارد من الوعيد على هذا شامل للدنيا والآخرة، ففي الدنيا تتغير الأحوال، فتحل النقم، وتزول النعم، وتنقلب العزة ذلة، والنصر هزيمة، ويؤول التمكين والغلبة إلى الصغار والهوان، ويتسلط الأعداء، وتجتاح الديار، وتنتهب الأموال، ويصير أمر الناس إلى أعدائهم؛ فيحملونهم على ما يريدون. أما الآخرة ففيها سخط الله تعالى وأليم عقابه، والحرمان مما أعده لعباده المؤمنين الثابتين على الحق.

والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٩٠)، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٩١)، وقوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(٩٢).

٧- القصص

يساق القصص القرآني لمعان عظيمة، وحكم جليلة، منها أخذ العظة والعبرة، والاستفادة مما حل بالغابرين، والتعرف على سنن الله تعالى في خلقه. قال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٩٣). ومن قصص القرآن ما تحدث عن الثبات؛ بياناً لحسن عاقبته، وحثاً للمخاطبين على التزامه، وحملاً لهم على الاقتداء بمن سلف في ذلك. قال تعالى عن الملأ من بني إسرائيل الذين خرجوا مع طالوت لقتال جالوت وجنده: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فكانت النتيجة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٩٤).

٨- ضرب الأمثال

للأمثال القرآنية أثر كبير في فهم كتاب الله وتدبره، فإن المعاني إذا جاءت واضحة جلية في أمثال مضروبة للناس، كان ذلك أدعى إلى إدراكها وفهم مغزاها؛ فالمثل يقرب المراد، ويفهم المعنى، ويوصله إلى ذهن القارئ أو السامع، ويحضره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به.

---

(٩٠) سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

(٩١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٩٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٩٣) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٩٤) سورة البقرة، الآيتان: ٢٥٠، ٢٥١.

ولأجل هذا كثر ضرب الأمثال في القرآن ، فتناول موضوعات عديدة وأغراضاً كثيرة ، ومن ذلك موضوع الثبات حيث يقول تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٩٥) . ففي هذه الآية مثل الذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من نفسه لقوة إيمانه بزارع عاقل فطن ، يزرع حبه في أرض طيبة التربة ، بربوة لا تجرفها السيول ، فنزل عليها المطر الغزير ؛ فآتت ثمارها ضعفين ، فإن لم يصبها المطر الغزير كفاها المطر الخفيف ؛ لتعطي الثمر الطيب المضاعف ، وكذلك يكون الأجر والثواب من الله تعالى.

ولا شك أن هذه الصورة التمثيلية تهيج في نفس المؤمن دوافع البذل والسخاء ، مقرونة بالثبات على منهج الله ؛ فينطلق إلى تلبية مراد الله تعالى في إنفاق ماله في وجوه البر المختلفة.

المبحث الثالث: عوامل الثبات على الحق

هناك عوامل متعددة تعين المؤمن على أن يبقى مستقيماً على الطريق ، ثابتاً على الحق ، مداوماً على الخير ، مجاهداً لنفسه في مرضات الله ، متحصناً من هوى نفسه ، ومن شرور شياطين الإنس والجن. لا يضره كثرة الضالين ، ولا يفتنه عن دينه كثرة الهالكين. لا تنال منه الشبهات ، ولا تؤثر فيه الشهوات. بل هو راسخ الإيمان ، قوي اليقين ، مداوم على العبادة ، حتى يلقى ربه عز وجل.

والمستقرئ لآيات القرآن الكريم ؛ يرى أنها قد ذكرت جملة من عوامل الثبات على الحق ، فمن ذلك :

١ – الإخلاص لله تعالى

من أهم عوامل الثبات ، بل هو أهمها على الإطلاق : الإخلاص وتجريد التوحيد لله تعالى ؛ وذلك أن المؤمن إذا صلحت سريرته ، وصدق توجهه ، وامتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه ، فلم يراقب سواه ، ولم يخش غيره ، ولم يصرف شيئاً من أنواع العبادة لأحد من خلقه ؛ فإن الله عز وجل يؤيده ويسدده ويثبته ، قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾(٩٦) ؛ فتعليق التثبيت على قيد الإيمان يدل على أنه سبب حصوله ، فهم لم يستحقوا تثبيت الله لهم إلا لقيام هذا الوصف فيهم.

---

(٩٥) سورة البقرة ، الآية ٢٦٥.

(٩٦) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٧.

٢- العمل الصالح

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾(٩٧). ففي هذه الآية العظيمة جعل الثبات عاقبة لنوع عظيم من أنواع العمل الصالح؛ وهو الجهاد في سبيل الله؛ نصراً لله تعالى، وإعلاء لكلمته.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا (٦٦) وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا (٦٧) وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾(٩٨)، تعميم شامل للعمل الصالح كله، فقد رتب ﷻ على فعل ما يوعظون به من الأوامر والنواهي أموراً عظيمة، من أهمها: حصول التثبيت والثبات وزيادته؛ فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب القيام بما وعظوا به فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن فيما يؤمرون به وينهون عنه، وفيما يحل بهم من المصائب؛ فيحصل لهم ثبات يوفقون به لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد؛ فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو الشكر. فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت، وفي القبر. وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.(٩٩)

وهكذا، فالعمل الصالح يستدعي غيره من الأعمال الصالحة، ويبعث عليها، ويثبت صاحبه على مداومتها والمحافظة عليها. قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾(١٠٠)، وقال ﷻ: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾(١٠١). قال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.(١٠٢)

٣- استشعار النعمة

استشعار نعمة الله تعالى على الناس بهذا الدين، واستعظام قدرها؛ من أعظم ما يعين على الثبات عليها، ويستنهض الهمة للقيام بلوازمها. فإن النفوس لا تدرك ما هي فيه من النعم إلا إذا عرفت ما يضادها ويقابلها. ولهذا تعددت الآيات القرآنية المصرحة بقيمة هذا الدين، وعظيم نعمة الله ﷻ بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ﷺ؛ إذ به أنقذ الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الجهالة إلى العلم، ومن الفرقة والعداوة إلى الألفة والمحبة والاجتماع.

---

(٩٧) سورة محمد، الآية: ٧.

(٩٨) سورة النساء، الآيات: ٦٦ - ٦٨.

(٩٩) تفسير السعدي: ١٥٠.

(١٠٠) سورة محمد، الآية: ١٧.

(١٠١) سورة الليل، الآيات: ٥ - ٧.

(١٠٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٠/ ١٢٥، تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٩، جامع العلوم والحكم ١/ ٣٤٢، تفسير السعدي: ٢٥.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١٠٣). وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾(١٠٤).

إن مما يزيد المؤمن إيماناً واستقامة وثباتاً على الحق؛ ما يراه من حوله من الضلالات والجهالات، التي عمت كثيراً من الشعوب والمجتمعات في عالمنا المعاصر، فهي تتخبط في غيها، وتهيم في ضلالها، سواءً أكان ذلك في المعتقد أم الشريعة أم السلوك والأخلاق. فيرتد إليه بصره، ويعود إليه فكره شاكراً لله تعالى، حامداً إياه أن هداه للإيمان.

٤- الدعاء

اللجوء إلى الله تعالى، والتوجه إليه، وإظهار التذلل والافتقار بين يديه؛ من أعظم الدواعي لثبات المؤمن على دينه، واستقامته عليه. وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يكثر في دعائه من قول: " اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك "، فلما سئل عن ذلك، قال: " إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ".(١٠٥)

وقد أثنى الله على عباده المؤمنين لسؤالهم إياه، ودعائهم له عز وجل أن يرزقهم الثبات، فقال سبحانه عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١٠٦)، وقال جل: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١٠٧)، وقال عز وجل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾(١٠٨).

إن الدعاء هو الحصن الحصين، والملاذ الآمن، ولا يزال المؤمن محتاجاً إليه في شأنه كله، في سرائه وضرائه، بل هو العبادة كما أخبر النبي ﷺ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الدعاء هو العبادة. ثم قرأ:

---

(١٠٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(١٠٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(١٠٥) سبق تخريجه.

(١٠٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

(١٠٧) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.

(١٠٨) سورة آل عمران، الآية: ٨.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾"(١٠٩). فحري بالمؤمن أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن يخشى على دينه، وأن يلجأ إلى ربه ﷻ، وأن يعوذ بحماه؛ داعياً إياه بإلحاح وافتقار وتذلل، وانكسار بين يديه، سائلاً إياه أن يحفظ عليه دينه، وأن يثبته عليه في محياه وعند مماته، وأن يعيذه من مضلات الفتن، فإن المهتدي من هداه الله وثبته، والضال من وكله إلى نفسه.

٥- المداومة على قراءة القرآن

قراءة القرآن من أفضل الأعمال، وأجل الطاعات، أمر الله بها عباده المؤمنين في غير ما آية من كتابه، فقال سبحانه: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾(١١٠)؛ وأمره ﷺ أمر لأمته بالتبع. وقال ﷻ: ﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩١) وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ ﴾(١١١). وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾(١١٢).

وأما الأحاديث الواردة في الحث على قراءة القرآن، وبيان فضلها؛ فكثيرة جداً. منها: قوله ﷺ: " اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه "(١١٣)، وقوله ﷺ: " من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف "(١١٤)، وقوله ﷺ: " يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها ".(١١٥)

وهذه الأدلة وإن كان أكثرها محمولاً على الفضل الأخروي، إلا أن لقراءة القرآن منافع دنيوية عظيمة، من أبرزها زيادة الإيمان، وحصول الهداية والاستقامة، وثبات المؤمن على دينه. قال تعالى: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ

---

(١٠٩) أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ٧٦ ح ١٤٧٩، والترمذي في سننه ٥/ ٢١١ ح ٢٩٦٩، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٤٥٠ ح ١١٤٦٤، وابن ماجه في سننه ٢/ ١٢٥٨ ح ٣٨٢٨، والإمام أحمد في مسنده ٤/ ٢٦٧ ح ١٨٣٧٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٣٤٠٧.

(١١٠) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(١١١) سورة النمل، الآيتان: ٩١، ٩٢.

(١١٢) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

(١١٣) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٥٥٣ ح ٨٠٤.

(١١٤) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٧٥ ح ٢٩١٠. وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح ٤٨٤/١ ح ٢١٣٧.

(١١٥) أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ٧٣ ح ١٤٦٤، والترمذي في سننه ٥/ ١٧٧ ح ٢٩١٤، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٢٢ ح ٨٠٥٦. وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح ٤٨٣/١ ح ٢١٣٤.

مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(١١٦). وقال ﷻ مبيناً وجهاً من وجوه الحكمة في إنزال القرآن منجماً: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾(١١٧).

ومن الدروس المستفادة من هاتين الآيتين أن الثبات يحصل بقراءة القرآن، لا سيما إذا صاحب ذلك تدبر لآياته، وتفهم لمعانيه، وانتفاع بمواعظه وهداياته، ووقوف عند أوامره وزواجره، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: "كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضلّ "(١١٨).

والسنة أن تكون قراءة القرآن على وجه المداومة؛ فإنها وإن قل معها القدر المقروء، خير من الإكثار من القراءة مع الانقطاع. واللائق بالمسلم أن يجعل له من كتاب الله حزباً في كل يوم، لا يخل به ولا يتركه، إلا لعذر يمنعه منه. وقد كان النبي ﷺ ـ وهو القدوة ـ يحرص على ذلك، وربما ترك بعض المهمات لأجله. فعن أوس بن حذيفة الثقفي قال: " كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ ـ إلى أن قال ـ فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله ؟ قال: طرأ عليّ حزبي من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه. قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة وحزب المفصل من قاف حتى يختم ".(١١٩)

ويستفاد من هذا الحديث أيضاً أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يداومون على قراءة القرآن، فيختمونه في سبعة أيام. فإذا كان هذا هو نهج رسول الله ﷺ وصحابته الذين هم خير القرون؛ فلا شك أن من بعدهم ممن هو دونهم في كمال الإيمان وقوة الثبات أولى وأحرى.

٦- النظر في الآيات الكونية

النظر في آيات الله الكونية المبثوثة في الأنفس والآفاق، والاعتبار بعظيم خلقها، والتفكر في إتقان صنعها؛ مما يورث الإنسان الإيمان بالله تعالى وخشيته وتعظيمه، والاستقامة على دينه، والثبات عليه. ذلك أن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق ﷻ. ومن تدبر كتاب الله وجد أن ذكر هذه الآيات يقترن ـ غالباً ـ بتقرير ألوهية الله تعالى ووحدانيته، والتأكيد على خشيته ووجوب طاعته. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ

---

(١١٦) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(١١٧) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(١١٨) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٨٧٤ ح ٢٤٠٨.

(١١٩) أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ٥٥ ح ١٣٩٣، وابن ماجه في سننه ١/ ٤٢٧ ح ١٣٤٥، والإمام أحمد في مسنده ٤/ ٩ ح ١٦٢١١، وحسّن إسناده ابن كثير في فضائل القرآن: ٨١.

ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾الآيات، وفيها ذكر لجملة من مخلوقات الله تعالى، وتوجيه إلى التفكر فيها، وفي تمام صنعها، ثم جاء التعقيب على ذلك بذكر النتيجة المرجوة من هذا النظر والتفكر، فقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(١٢٠).

إن للنظر في الآيات الكونية أثراً لا ينكر في حمل المؤمن على الثبات على دين الله، والبعد عما يغضبه ﷻ، ولهذا كان الصالحون من سلف هذه الأمة يوصون به عند خبوت جذوة الإيمان، وتطلع النفس إلى شيء مما حرم الله تعالى. قال عكرمة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾(١٢١). قال: (هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله)(١٢٢). فقوله: فلينظر في ملكوت السموات والأرض، معناه: أن يتأمل في آيات الله الكونية، فإن ذلك يورثه خشية الله تعالى، والاستقامة على شرعه؛ فلا يتطلع إلى ما حرم الله من الزنا، بل يصبر حتى يجعل الله له مخرجاً، ويهيأ له سبيلاً مشروعاً بالنكاح أو ملك اليمين.

٧- تذكر الآخرة

من أعظم ما يحمل المؤمن على الاستقامة، ويعينه على الثبات على دين الله تعالى؛ تذكر الآخرة، وما فيها من الأهوال والشدائد، والبعث والحساب والجزاء، وما أعده الله للمؤمنين من أنواع النعيم، وما أعده للكافرين من صنوف العذاب. ولأجل هذا ـ والله أعلم ـ كثر في كتاب الله ﷻ ذكر الوعد والوعيد، لا سيما عند تقرير التوحيد، وعند الحديث عن التكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي.

ولما كان الموت هو أول مقامات الآخرة، والقبر هو أول منازلها؛ فقد دعا النبي ﷺ إلى الإكثار من تذكر الموت، وحث على زيارة القبور؛ معللاً ذلك بأنها تذكر الآخرة، وتعين على الخير والعمل الصالح. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت ".(١٢٣) وعن بريدة الأسلمي رضي الله عنه

---

(١٢٠) سورة الأنعام، الآيات: ٩٥ ـ ١٠٣.

(١٢١) سورة النور، الآية: ٣٣.

(١٢٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٨.

(١٢٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٧/ ٢٥٩ ح ٢٩٩٢، والنسائي في السنن الكبرى ١/ ٦٠٠ ح ١٩٥٠، والترمذي في سننه ٥٥٣/٤ ح ٢٣٠٧، والإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٩٢ ح ٧٩١٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: ١٢١٠.

قال: قال رسول الله ﷺ: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة "(١٢٤)، وفي رواية: " ولتزدكم زيارتها خيراً "(١٢٥).

٨- النظر في قصص السابقين

من أعظم فوائد القصص القرآني الاتعاظ والاعتبار، والاستفادة من دروس السابقين وسيرهم. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١٢٦). وفي تخصيص أولي الألباب بالذكر دعوة إلى التفكر والنظر في عواقب من سبق، فإن السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ به غيره.

وفي قصص القرآن ذكر لأهل الثبات، وبيان لحسن عاقبتهم. وذكر لأهل الزيغ والفساد، وبيان لسوء خاتمتهم. وكل ذلك ليعتبر أهل الإيمان؛ فيزدادوا ثباتاً ويقيناً. قال ﷻ بعد سياق قصص عدد من الأنبياء مع أقوامهم: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١٢٧).

وقد كان النبي ﷺ يثبت أصحابه، ويصبرهم على ما يلقونه من أذى المشركين بذكر بعض قصص من سبقهم من أهل الثبات. فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: " شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة. فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ! فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون "(١٢٨).

وإذا كان معيناً على الثبات ما يكون من نظر في سير السابقين، فلا ريب أن من أعظم ما يكون في ذلك قراءة سيرة النبي ﷺ، ومواقفه العظيمة مع قومه وغيرهم، ممن كذبوه وآذوه ورموه بما لا يليق به من التهم الباطلة، ثم ناصبوه العداء؛ فأخرجوه وحاربوه والمؤمنين معه، وهو ﷺ صامد ثابت على الحق لا يتزعزع عنه ولا يحيد. لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يرده عن تبليغ رسالة ربه إغراء المغرين، ولا إرهاب المرهبين. وهو القائل ﷺ حين

---

(١٢٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/ ٦٧٢ ح ٩٧٧، والإمام أحمد في مسنده ٥/ ٣٥٠ ح ٢٣٠٠٨.

(١٢٥) أخرجها النسائي في السنن الكبرى ٣/ ٦٩ ح ٤٥١٨، والإمام أحمد في مسنده ٥/ ٣٥٥ ح ٢٣٠٥٣. وصححها الألباني في إرواء الغليل ٣/٢٢٤.

(١٢٦) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(١٢٧) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(١٢٨) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ٢٥٤٦ ح ٦٥٤٤.

ساومته قريش، وحاولت صده عن دعوته بالمغريات العظيمة: " والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ".(١٢٩)(١٣٠)

ثم إن في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ، ومن بعدهم من سلف هذه الأمة، ممن رسموا أعظم المواقف في الثبات على الحق؛ لعظة وعبرة لكل من تفكر واعتبر. ولا يُنكَر ما تحدثه قراءة سيرهم من أثر عظيم في النفوس؛ بزيادة الإيمان، وصدق اليقين، وصبر على البلاء، واستقامة على المنهج القويم.

٩- البعد عن الفتن

الحرص على الابتعاد عن فتن الشبهات والشهوات من أعظم ما يعين المؤمن على حفظ دينه، والاستقامة عليه. وعلى هذا فلا ينبغي الإفراط في الثقة بالنفس، والاغترار بما هي عليه من الصلاح، والأمن من عواقب الفتن. فكم من إنسان غرته نفسه؛ فأوردته موارد الهلاك. وإذا كان هذا قد وقع لبعض السابقين إلى الإسلام، ممن عاينوا التنزيل، وعايشوا رسول الله ﷺ، فكيف بمن عداهم؟ فهذا عبيد الله بن جحش يؤمن بدين الله، ويصدق رسوله ﷺ، ويدع أهله وبلده وماله، ويفر بدينه مهاجراً إلى الحبشة. ثم تزين له نفسه النظر في دين النصارى، فيستزله الشيطان، ويزين له دينهم؛ فيرتد عن الإسلام، ويصير إلى النصرانية؛ حتى يموت عليها. وقد كان بلغ من حاله أن يُعجب بما صار إليه، وأن يعير المسلمين الثابتين على الحق، فيقول: فقحنا وصأصأتم؛ أي أبصرنا رشدنا ولم تبصروه.(١٣١)(١٣٢)

ومما يدل على أن المؤمن يجب عليه أن يفر من الفتن، ولو ظهر له من نفسه ما يدل على قوة الإيمان ورسوخه؛ قوله ﷺ في فتنة الدجال التي هي أعظم الفتن: " من سمع بالدجال فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات " (١٣٣).

ومن أعظم الفتن الركون إلى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بالميل إليهم، والسمع لهم، واعتقاد نصحهم وإخلاصهم؛ فإنهم لا يألون جهداً في صد المسلمين عن دينهم، وفي إيحاش صدورهم، وتأليب بعضهم على بعض،

---

(١٢٩) انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٢/ ٣٦٨، البداية والنهاية ٣/ ٤٨.

(١٣٠) انظر في أهمية دراسة سيرة النبي ﷺ، وأثرها الكبير في تحقيق السعادة في الدارين: زاد المعاد: ٢٥.

(١٣١) فقحنا: من قولهم: فقح الجرو إذا فتح عينيه، وفقح النور إذا تفتح. صأصأتم: من صأصأ الجرو إذا حرك أجفانه لينظر قبل أن يفقح. انظر: الفائق ٢/ ٢٧٦، النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٤٦٢.

(١٣٢) انظر: البداية والنهاية ٤/ ١٤٣، فتح الباري ٨/ ٢١٨.

(١٣٣) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ١١٦ ح ٤٣١٩، والإمام أحمد في مسنده ٤/٤٣١ ح ١٩٨٨٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: ٦٣٠١.

وزرع الفرقة والاختلاف بينهم. قال عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾(١٣٤)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾(١٣٥). قال الطبري ـ رحمه الله ـ: (نزلت في رجل من اليهود حاول الإغراء بين الحيين من الأوس والخزرج بعد الإسلام ليراجعوا ما كانوا عليه في جاهليتهم من العداوة والبغضاء فعنفه الله بفعله ذلك وقبح له ما فعل ووبخه عليه ووعظ أيضاً أصحاب رسول الله ﷺ ونهاهم عن الافتراق والاختلاف وأمرهم بالاجتماع والائتلاف).(١٣٦)

وهذا الحكم الوارد في حق الكفار ليس قصراً على زمن بعينه، أو مكان بعينه، بل هو وصف ملازم لهم، قال تعالى عن ذلك: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)(١٣٧)، وقال أيضاً عزّ وجلّ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾(١٣٨). وعلى هذا فالواجب على المؤمن أن يحذر من الاختلاط بهم ومصاحبتهم، فضلاً عن تقليدهم ومحاكاتهم والتشبه بهم، ولو كان ذلك في الأمور الشكلية؛ لأنه قد يفضي إلى الإعجاب بما هم عليه من المعتقد والسلوك والأخلاق، لا سيما في هذا الزمان الذي تغلبوا فيه؛ فإن المغلوب قد جبل على تقليد الغالب.

ومن الفتن التي يجب على المؤمن الحذر منها أيضاً فتنة الشهوات؛ فإن لها أثراً عظيماً في الصد عن دين الله، والبعد عن صراطه المستقيم. وكم من إنسان تحول بسبب نظرة أو كلمة من الهدى إلى الضلال، ومن الاستقامة إلى الزيغ والفساد، ومن ولاية الله إلى ولاية الشيطان وحزبه. وقد ذكر أن رجلاً كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون محاصرو بلدة من بلاد الروم، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن فهويها، فراسلها ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصر وتصعد إليّ. فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غماً شديداً، وشق عليهم مشقة عظيمة. فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان، ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال: اعلموا أني أنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾(١٣٩). وقد صار لي فيهم مال وولد.(١٤٠)

---

(١٣٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٩.

(١٣٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٠.

(١٣٦) تفسير الطبري ٤/ ٢٣.

(١٣٧) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(١٣٨) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(١٣٩) سورة الحجر، الآيتان: ٢، ٣.

(١٤٠) البداية والنهاية ١١/ ٦٤.

ويشتد الخطر ويعظم الخطب في هذا الزمان الذي عظمت فيه دواعي الفتنة، من النظر المحرم، والسماع المحرم، مع تعدد وسائل الإعلام، وتنوع أساليب الاتصال، وانتشار أماكن الفسق والفجور، والتعري والسفور، من النوادي والملاعب والشواطئ... وغيرها، مع كثرة الدواعي إلى ارتيادها والتعامل معها. والواجب على المؤمن الحريص على دينه؛ البعد عن ذلك كله، والحذر من الوقوع فيه؛ فإن السلامة لا يعدلها شيء.

١٠- الرفقة الصالحة

للرفيق والصاحب أثر لا ينكر في الإصلاح أو الإفساد، فهو إما أن يكون دليلاً إلى الخير، معيناً عليه، مثبتاً ومصبراً على تكاليفه، أو يكون داعياً إلى الفسق والضلال، صاداً عن ذكر الله وما يقرب إليه، مزيناً ومهوناً أمر المعصية والفجور. وقد نبه النبي ﷺ إلى هذا الأثر بقوله في الحديث الصحيح: " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة "(١٤١).

ومن مأثور الحكمة قول الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه　　فكل قرين بالمقارن يقتدي(١٤٢)

وفي كتاب الله تعالى ذكر لأمثلة على نوعي الأصحاب، وبيألاثرهم على المصاحب. ففي جانب الصحبة الصالحة تُذكر قصة يوسف ﵇ مع صاحبيه في السجن، حين استفتياه في أمر الرؤيا التي رأياها، فصدّر ﵇ جوابه لهما بدعوتهما إلى الله تعالى، مبيناً المعتقد الصحيح المنجي من عذاب الله، والمعتقد الفاسد المفضي إلى غضب الله وعقابه: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(١٤٣).

ومن ذلك أيضاً موقف النبي ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق ﵁ حين خرجا من مكة مهاجرين، فلجآ إلى غار ثور، في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب. فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما؛ فيقول ﷺ لصاحبه أبي بكر لما حزن واشتد قلقه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ

---

(١٤١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢١٠٤ ح ٥٢١٤، ومسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٢٦ ح ٢٦٢٨.

(١٤٢) البيت لعدي بن زيد. انظر: تفسير الطبري ٥/ ٨٨، تفسير القرطبي ٥/ ١٩٤.

(١٤٣) سورة يوسف، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾(١٤٤)، أي: ينصرنا ويؤيدنا. فكانت العاقبة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾(١٤٥)، أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد.(١٤٦)

وفي جانب الصحبة السيئة يقول تعالى: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً)(١٤٧). قال المفسرون: كان عقبة بن أبي معيط خليلاً لأمية بن خلف، فأسلم عقبة. فقال أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً؛ فكفر، فنزلت الآية.(١٤٨) وسواء أكان ذلك سبب نزولها أم لا؛ فالآية عامة في كل ظالم، فإنه يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه، ويقول: ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً. يعني من صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلال، من شياطين الإنس والجن.

فالواجب على المؤمن أن يعتبر، وأن ينظر لنفسه وقت الإمكان، وأن يتدارك الممكن قبل ألا يمكن، وأن يصاحب ويوالي من في ولايته سعادته، وأن يفارق ويعادي من تنفعه عداوته، وتضره صحبته.(١٤٩)

وبعد، فهذا تمام ما منّ الله تعالى به في دراسة موضوع الثبات في القرآن الكريم، والله أسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يرزقنا الاستقامة على دينه، والثبات عليه، إنه ولي ذلك والقادر عليه. والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١٤٤) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(١٤٥) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(١٤٦) تفسير السعدي: ٢٩٨.

(١٤٧) سورة الفرقان، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

(١٤٨) انظر: تفسير الطبري ١٩/ ٨.

(١٤٩) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٨، تفسير السعدي: ٥٣٠.

The Firmness on the Right Truth of Holy Quran

Abdulaziz A. Al-Kudhiri
Menbros of Univercity Proffsurs Al Qaseem
Colide of Eslamic, Saudi Arabia

Abstract.Praise be to God! And pray and peace upon the prophet…and after that:

That guidance to this truth religion by revelation the Holy Quran and sending the prophet Mohammad "God's praise and peace upon" and the resulting from these as to save the people from the darkness to see the right , this is meaning direction the people and knowledge them the right way instead of the evil way and going astray to the true religion to the great of Allah's blessing on his human beings. It's absolutely not the greatest thing in our life. The requirements of thanking this blessing conservation on it and straightness on straight way and steady on it to death.

There are in the Holy Quran meanings which is light our life and indicate the way and fixed the truth of firm and show what is achieving it, especially in this time which spreading the charms, reasons of suspicions and causes of appetites.

In this research studying to the firmness on the right and truth in the right of Holy Quran, and the scholar put it in three main themes:

The first: the really of firmness and its kinds, and in it display to the meaning of the firmness in linguistics and its meanings which mentioned in the Holy Quran and what is mentioned about the companion of the prophet and his followings "predecessors" in its merit and its standings. In it restriction to the kinds of firmness which mentioned in Holy Quran such as the stability in the belief and stability on the right works with all kinds from "Jihad" Holy war and mission, expenses and others. The firmness is divided to the secular firmness and the firmness which relating to the hereafter.

The second: in showing the styles of Holy Quran to encourage to firmness and including: advocating good actions and tell with good manners and forbidden the inhabitation for indefinite actions, praise, dispraise, arousal of an interest, terror, novels and giving an examples.

The third: in the mention of the firmness factors on the truth which mentioned in the Holy Quran and include sincerity to Allah, right work, sense by the grace of Allah, invocation of Allah, persistence to read Holy Quran, scrutiny in the verses of the Holy Quran, remember the hereafter, good companions, sermon from the novel which mentioned as examples about the pervious and avoid the charms.